مقدمـــة

بقلم الدكتور / محمد رجب البيومي

أسهمت الدار المصرية اللبنانية إسهاماً محموداً فى نشر مؤلفات العلامة الكبير الأستاذ محمد فريد وجدى، التى لم تُجمع من قبل فى كتب مستقلة، بل ظلت منتثرة فى أعداد المجلات منذ أكثر من نصف قرن، مما يجعل الرجوع إليها متعذرا لدى الكثيرين، مع أن هذه المقالات تمثل مرحلة الكمال العلمى التام لدى كاتبها الكبير، إذ كتب فصولها بعد أن تأكدت نظرته العملية الدقيقة لما يعانى من شرح المعضلات العويصة فى التعاليم الإسلامية بأسلوب مشوق لايتعب القارىء، وتعبير محدّد لا يقذف به فى مهاوى الاستقراءات، وأذكر أنى حين نشرت ما كتبه الباحث الكبير عن السيرة المحمدية فى ضوء العلم والفلسفة، قلت فى مقدمة الكتاب[1].

«شاء المؤلف (بعد حديث السيرة النبوية)، أن يكتب بحوثاً متتالية قال إنه يختصها ببحث الروابط، التى جعلت من الأمة الإسلامية وليدا مستكمل الحلقات، صالحاً للبقاء على أحسن وجه، فكتب ما يقرب من بضعة وعشرين فصلاً فى تقرير مبادئ الإسلام، وإيضاح أثره فى إصلاح الكون وهدايته، وما دعا إليه من حوافظ قوية تحمى الإنسانية من الانهيار ولا نبالغ إذا قلنا إن هذه البحوث من خير ما كُتب عن رسالة الإسلام فى القديم والحديث. ولكنها

(١) السيرة المحمدية تحت ضوء العلم والفلسفة ص ٣٥ وما بعدها.

لاتتصل اتصالاً عضوياً متلاحماً بسيرة الرسول، ومن الخير أن تنشر فى كتاب مستقل يحمل عنوان (رسالة الإسلام)».

قلتُ ذلك فى مقدمة كتاب السيرة المحمدية، ثم أصدرت كتابين آخرين - عن الدار المصرية اللبنانية يحويان بحوثاً للأستاذ الكبير، غير ما أسلفت الحديث عنه فى هذه المقدّمة، فجاء فى خطاب كريم من أستاذ جليل ينزل منى منزلة المرشد الموّجه، يتساءل عن الفصول التى أشرت إليها فى المقدمة، ويقول إذا كان الأستاذ وجدى قد جعلها من صميم السيرة النبوية، إذ وضعها تحت هذا العنوان الكريم (السيرة المحمدية) وإن كانت لا تتصل بالسيرة التاريخية إلا من ناحية تقرير مبادئ الإسلام، وإذا كان الأستاذ قد حرص على نشر هذه الفصول فكيف تؤثر عليها غيرها فى دورة النشر العلمىّ. وهى من الأهمية بمكان كبير، قال الأستاذ ذلك فأعادنى إلى ما كنت نسيته من قبل، ورأيت أن أعجل بنشر هذه الفصول، وإن كانت فى مجموعها لا تشمل حيزًا يناسب الحلقات السابقة من كتب الأستاذ فى حجمها الكمّى، فقد رأيت أن أضيف إليها من مباحث الأستاذ ما يشبهها مما لم يسبق نشره من قبل، وأهم تلك المباحث ما نشره فى فصول جديدة تحت عنوان (الروح الإسلامية ومدى تأثيرها فى النفس البشرية) وفى فصول أخرى تحت عنوان (عناصر المدنية فى الديانة الإسلامية) لاتصالهما المباشر بالفصول الملحقة بالسيرة المحمدية، وذلك بما يتمشى مع الروح العامة لكتابات الأستاذ وجدى التى تطرأ فى كل كتبه، منذ حمل أمانة القلم، فهو من أصحاب الرسالات العلمية التى تحدد الاتجاهات الملتزمة فى كل حرف كتبه، كما لم أجد مانعاً من أن ألحق بالكتاب بعض الفصول الوجدية التى تنتمى إلى الجو العام لهذه الدراسة، فالقارئ هو الغانم على كل حال.

وقد تعودت أن أشفع هذه الكتب بدراسات تحليلية، لما هو مدوّن بها، وأرى بعد ما كتبت أن اتجاه الأستاذ وجدى قد وضح تماماً لقرائه، من أبناء الجيل

الحاضر، وأقول: الجيل الحاضر؛ لأن معاصريه الكبار كانوا يعرفونه تمام المعرفة، ومن يخالفه فى الرأى لا يخفى إعجابه بسلوكه العلمى، والتزامه الخلقى، ومن يشذ عن هذا المسلك يجد الدرس المخجل من ردّ الأستاذ فى سلوكه العفيف، رفقاً ولطفا، وتسامحاً وإغضاءً فيتعلّم منه كيف يكون الحوارُ، وأنعمْ به.

قلت: إن معاصرى الأستاذ محمد فريد وجدى يقدرونه حق قدره، ويعرفون مكانه السابق فى دنيا الفكر الإنسانى بعامة ، والإسلامى بخاصّة، فإذا أراد القارئ مثالاً لهذا التقدير فسيجد فى الفصل التالى نصاً شافياً، مما كتبه الأستاذ الكبير عباس محمود العقاد عن الرجل عقب رحيله، ولن يقول العقاد فى مجال الثناء العاطر، غير ما يعتقد، والأستاذ محمد فريد وجدى بعد ذلك كلّه فى غنية عن التزكية، ولكن النفوس تطمئن بحديث صادق كتبه عملاق واثق، عن راحل نبيل.

(محمد رجب البيومى)

obeikandl.com

محمد فريد وجدى[1]

بقلم الكاتب الكبير الأستاذ

عباس محمود العقاد

هو فريد عصره غير مدافع !..

وتلك كلمة مألوفة طالت ألفتها حتى رثت وبليت وأصبحت حروفاً بغير معنى..

ولطالما قيلت عن عشرات من حملة الأقلام فى عصر واحد: كلهم فريد عصره، وكلهم واحد من جماعة تعد بالعشرات.. فلا معنى لها فى باب العدد ولا فى باب الصفات، ولاسيما صفات الرجحان والامتياز.

إلا أننا نقولها اليوم عن «محمد فريد وجدى» لنعيد إليها معناها الذى يصدق على الصفة حرفاً حرفاً، ولا ينحرف عنها كثيراً ولا قليلاً حتى فى لغة المجاز..

فقد عرفنا فى عصره طائفة غير قليلة من حملة الأقلام ورجال الحياة العامة، فلم نعرف أحداً منهم يماثله فى طابعه الذى تفرد به فى حياته الخاصة أو العامة، وفى خلقه أو تفكيره، وفى معيشته اليومية أو معيشته الروحية، وأوجز ما يقال عنه فى هذه الحالات جميعاً أنه لم يخلق فى عصره من يتقارب المثل الأعلى والواقع المشهود فى سيرته كما يتقاربان فى سيرة هذا الرجل «الفريد».

---

(١) من كتاب (رجال عرفتهم) ص ١٤٧.

نعم : الفريد حتى فى لغة الجناس، لأن اسمه فريد.. والفريد حتى فى عزلته، لأنه كان فى عزلة النساك والرهبان، عليمًا غاية العلم بالتحليل والتحريم(*)..

بدأ حياته الفكرية على مبدأ لم يخالفه قط فى أيام رخاء ولا فى أيام عسرة، فقصر طعامه على النبات وانفرد بهذا الطعام بين أهل بيته، واجتنب الولائم التى يدعى فيها إلى طعام غير طعامه.

وأخذ نفسه بسمت الأولين من عباد الله الصالحين، فتورع عن كل بدعة من بدع الضلالة أو الجهالة ينكرها الدين، وجهر باستنكاره لهذه البدع حين صمت الصياحون من الناطقين.

ذكرنا فى حديث الخديو والبكرى - فى غير هذا الفصل - قصة الطرق الصوفية يوم توديع المحمل بميدان المنشية وخلاصتها أن السيد محمد توفيق البكرى كان محنقاً على الخديو فى بعض السنين فمنع أصحاب الطرق من الخروج لموكب المحمل تحية للأمير فى ميدان الاحتفال، فخلا الميدان إلا من الموظفين المدعوين.. وغضب الأمير لأنه فهم من ذلك أنه زراية بالموكب الذى تعود أن يشهده العام بعد العام، فانتهر السيد «توفيق» وقال له بصوت مسموع على ملأ من رجال الدولة: أنت قليل الأدب..! وغضب السيد توفيق فانصرف من الاحتفال وهو يقول للأمير بصوت مسموع كذلك بين الحاضرين : لست أنا قليل الأدب.. إننى وزير مثلك، وآبائى وأجدادى لهم الفضل على آبائك وأجدادك..»

ولم تأخذ صحيفة واحدة بناصر السيد البكرى فى هذا الموقف، لأن الصحف الإسلامية لا تغضب الأمير من أجل شيخ الصوفية، ولأن الصحف غير الإسلامية لم تشأ أن تتعرض لمسألة من مسائل الدين..

(*) إشارة إلى بيت المتنبى فى وصف الأسد:

فى وحدة الرهبان إلا أنه لا يعرف التحريم والتحليلا

إلا صحيفة «الدستور» التى كان يصدرها فريد، فإنها أخذت بناصر البكرى وهو من غير المقبولين عند صاحبها لاختلافهما فى المسلك والسيرة، ولكن صاحب الدستور نظر إلى شىء واحد فى هذا الخلاف، وهو أن مظاهر الطرق الصوفية بدعة لا يستحسنها، وأن الأمير لم يكن على حق فى غضبه على شيخ الطرق لمنع حضورها.

وتتم هذه الخصلة الفريدة فى صاحب الدستور اليوم التالى ليوم خروج المحمل.. فقد اطلع البكرى على الصحيفة فأرسل إلى صاحبها بمبلغ من المال كانت فى أشد الحاجة إليه، فلم يقبل منه «فريد وجدى» غير قيمة الاشتراك لعام واحد، ثم رد إليه البقية قبل أن ينتصف النهار.

ولقد كانت أزمة الصحيفة أثراً من آثار «المبدأ» الذى لا ينحرف عنه الرجل قيد شعرة، وهو الجهر بالرأى ولو خالف القوة والكثرة وخالف أحب الناس إليه، وقد كان من رأيه عند تأليف الحزب الوطنى أن يكون تبليغ تأليفه والاحتجاج على الاحتلال عاماً غير مقصور على الدولة البريطانية، فلم يقبل مصطفى كامل مقترحه ولم يسكت فريد وجدى عن تأييد رأيه، فانصرف قراء اللواء عن قراءة الدستور ولم يكن للدستور قراء من الشيع السياسية الأخرى، فكسدت الصحيفة وعجزت عن النهوض بتكاليفها ولم يقبل صاحبها أن يعوض الخسارة بالمعونة المعروضة عليه من الجهات السياسية التى لا يوافقها.

ومن المعونات التى عرضت عليه فى أحرج أيام الأزمة معونة كبيرة من جماعة «تركيا الفتاة» يبذلونها للدستور مشاهرة ليكون لساناً عربياً لحركتهم الدستورية، ولكن على شريطة واحدة: وهى أن يرفع من صدر الصحيفة كلمة «لسان حال الجامعة الإسلامية».. فرفض الرجل هذه المعونة، ورفض أن يجعل صحيفته لساناً للحزب إلا بشروطه التى يرتضيها، ولو وافق الحزب على بقائها لساناً للجامعة الإسلامية...

وفى الوقت الذى كانت هذه المعونات تعرض عليه من شتى الجوانب -

ومنها جانب الحاشية الخديوية - كان الرجل يتحامل على نفسه وعلى القليل من موارد مؤلفاته لينفق عليها بعد تصغير صفحاتها واختصار أعدادها، فلما استنفد كل ما قدر على إنفاقه فى هذا السبيل أعلن تعطيلها وهو مدين لتاجر الورق وموظفى التحرير والإدارة بمقدار غير يسير.. فأبت عليه نزاهة النفس أن يؤخر مليماً واحداً لصاحب دين، واتفق مع تاجر الورق على استخلاص دينه من مؤلفاته بثمن يقل أحيانا عن عشر ثمنها فى المكتبات ومنها على ما نذكر معجمه المسمى بكنز العلوم واللغة وثمنه مائة وعشرون قرشاً، فاتفق على حسبانه بثلاثة عشر قرشاً، واشترط على التاجر أن يشترى النسخ التى تصرف للموظفين بما بقى لهم من متأخر الأجور والمرتبات، وحضر بنفسه تسليم النسخ واستلام الأثمان.

هذا هو الرجل الفريد فى نزاهة نفسه واستقامة خلقه وحفاظه على مبدئه ورأيه..

وهو كذلك - أو أكثر من ذلك - انفراداً بين كتاب عصره بجهوده فى مؤلفاته، فلا نعرف أحداً منهم توفر وحده على تأليف «دائرة معارف» كاملة، ولا على التأليف فى تفسير القرآن وفى معجمات اللغة والعلم، ولا على الجمع بين الدراسات الدينية والقصص الخيالية، ولا على الاستقلال وحده بإصدار صحيفة يومية، ولم يكن معه من المحررين غير كاتب هذه السطور، ولو استطاع وحده أن يؤدى أعمال التحرير خارج المكتب، ومنها الأحاديث وأخبار الدواوين، لاستقل وحده بالإدارة والتحرير.

وأشرف ما يكون صاحب المبدأ إذا كان استقلاله برأيه لا يأبى عليه أن يعرف لغيره حقهم فى الاستقلال بما يرون.

وقد كنت يوم اشتغلت بتحرير الدستور كاتباً ناشئاً، خامل الذكر، ليس لى بحق الشهرة أن يكون لى رأى مستقل مسموع، ولكنى كنت أخالفه فى بعض آرائه بل فى بعض مبادئه السياسية وبعض معتقداته عما وراء المادة وتحضير

الأرواح، وأشهر ما كان من ذلك حول موقف الحزب الوطنى من سعد زغلول، فلم يمنعنى ذلك أن أنشر فى الدستور ما يخالف هذا الموقف، وأن أحادث سعد زغلول حديثاً ينفى كل ما يعزوه إليه كتاب اللواء.. وقد صارحته غاية الصراحة فيما كان يعتقده من تحضير الأرواح وصارحنى غاية الصراحة فى أمر المتشابهات، من العقائد والأحكام فلا أذكر أننى لمحت منه عند أشد المخالفة نظرة غير نظرته حيث تقترب الأفكار والآراء.

* * *

ومما انفرد به فى صناعة الكتابة أنه كان يكتب منفرداً كما يكتب بين جمع من الزوار والعمال، وأن سرعة قلمه بالكتابة لم تكن دون سرعة لسانه بالكلام، وأنه كان سريع النظم للشعر كما كان سريع النسج للنثر البليغ، وإن لم يكن يشتغل بنظم الشعر فى غير موضعه من قصص الخيال..

ومن شعره فى هذه القصص الخيالية قوله:

رُمت المخاوف والمخاطر فرويت ما لم يرو شاعر
وجمعت ما بين البدا وة والحضارة والمظاهر
وشهدت ما لو قلته عدوه من عبث الخواطر
وخرجت من ذا كله بحقيقة تغنى المكابر
هى أن هذا الناس قد سحرتهم فتن سواحر
ظنوا السعادة فى التأ نق والتظرف والتفاخر
وإقامة الدور الشوا هق والعلالى والمقاصر
والجرى أعقاب اللذا ئذ والتورط فى الكبائر
بين افتتان بالقشو ر ووقفة حول الظواهر

أما السعادة فهى فى أن تفتق الحجب السواتر
وتحصل السر الذى شقت لمطلبه المرائر
وتنال من معناك ما حُرِمَتْه همات قواصر
أن ترتقى بالروح حيـ ث الحق عالى القدر سافر
هذى السعادة كلها فاظفر بها إن كنت ظافر

وله شعر فى هذه القصص يقول فيه عن المدنية :

ضل أهل الألمعيه فى علاج المدنية
هى من أقدم عهد عضلة العلم القويه
هى للجثمان غنم وهى للروح بليه
والذى قر عليه الرأ ى من أهل الرويه
أنها شر ضرور ى لخير البشريه

ولو كانت طواعية النظم للنظام آية الملكة الشعرية لكان فريد وجدى فى طليعة الشعراء المطبوعين، ولكن سهولة نظمه كسهولة نثره كلتاهما دليل على بساطة فى الطبع، سلمت من العقد المركبة، وتقابلت فيها الأعماق والظواهر بغير حجاب من خفايا النيات وعوج الأهواء.. فلا تشق عليه سلاسة التعبير ولا سلاسة التفكير.

ومن صراحة خلقه وإيمانه باستقلال الرأى عنده وعند غيره، أنه كان يستمع إلى رأيى فى شعره فلا يغضبه ولا يهمه أن يكون له حظ من الشعر أكبر من حظه، وقد قلت له مرة: حسبك من الشعر ما يقنع قلب المتصوف ولسانه فقال: والله إنه لخير كثير، ومن لنا ببعض هذا النصيب؟

روى العالم اللغوى الشيخ عبد القادر المغربى، وهو من تلاميذ السيد جمال الدين الأفغانى، أن السيد عرض عليه الزواج فقال: إن جمال الدين وهو متزوج رب أسرة وصاحب بيت يأوى إليه بين أهله وبنيه صورة من صور الخيال أغرب من صورة الشيخ عليش وهو يسعى إلى الأزبكية ليجلس إلى حانة من حاناتها ويصفق بيديه يستدعى «الجرسون» ليأمره بسؤال من حوله عما يطلبونه من مشارب الحانات.

أقول إننى قد رأيت بعينى فى الواقع ما هو أغرب من هاتين الصورتين. وهو منظر «محمد فريد وجدى» يتمشى فى قلب الأزبكية بين المتاجر والحانات وهى لا تدرى من هذا الذى يغيب فى أطوائها بين هذا الزحام، ولعله هو أيضا لا يدرى أن هذه هى الأزبكية إلا كما يدرى الطيف فى الصور المتحركة أين يضعه المخرجون بين مشاهد الأفلام.

فقد كان السير على الأقدام من رياضات الرجل قبيل الأصيل كل نهار، وكان يمضى فى رياضته حيث ساقته قدماه، تارة إلى منازه الخلاء وتارة أخرى إلى حى السكة الجديدة، وحينا إلى قصر النيل وحينا إلى شارع جلال أو عماد الدين، ولا يحس من يراه فى مكان من هذه الأمكنة، وهو ينظر إلى ملامح وجهه، أنه يفرق بين مكان منها ومكان سواه، كأنه - لانطوائه على نفسه - يتمشى فى عالم السريرة ولا يتمشى فى عالم العيان.

وكنت أراه أحياناً فى طريقى ولا أعرف من هو بين غمار الناس، على علمى ببعض آثاره وسماعى ببعض أخباره، ومنها فى قفشات الأدباء «أولاد البلد» أنه يعيش فيما وراء المادة.. فى عطفة من عطفات عالم الروح..

فلما رأيته لأول مرة بعد إعلانه عن إنشاء صحيفة الدستور أسفت لما فاتنى من الشعور بتلك الأعجوبة التى كنت أشهدها كما يشهدها غيرى من عابرى الطريق، ولا يشعرون بها..

«ما وراء المادة» كله ينتقل إلى حى الأزبكية فى ضوء النهار؟!..

إننى لأشعر اليوم أنه منظر عجب غاية العجب: منظر أعجب من جمال الدين رب الأسرة والدار، أو منظر الشيخ عليش جليس القهوة والبار..

وقد صحبته فى رياضة من هذه الرياضات أول يوم لقيته فيه، فعلمت حقاً أنه كان يغشى تلك الأماكن وكأنه لا يغشاها، لأنه يستطيع أن يمضى فى عزلة عما حوله كما يستطيع أن يجلس إلى مكتبه ليكتب ويفكر ويناجى سريرته ولا يدرى من يخاطبهم ويخاطبونه.. إنه بعيد عنهم وإنهم بعيدون عنه، فى عالم آخر من وراء المادة.. إذا شاء أولاد البلد الظرفاء.

وكنت قد عرفته من كتاباته زمناً قبل أن أعرفه رأى العين، ولكننى بعد أن صاحبته فى مكتب الدستور من يوم إنشائه إلى يوم تعطيله - إلا فترات من الزمن لا تحسب - أرانى أستطيع أن أقول إننى كنت أعرفه من كتاباته كذلك وأنا معه فى دار واحدة، لأنه كان يعمل فى مسكنه بالدار ولا ينتقل إلى مكتبه إلا للقاء طارىء من الزوار، أو للاجتماع بلجنة من لجان الصحيفة لمراجعة أحوال الإدارة والتحرير والتوزيع، وكان يعفينى من اطلاعه على ما أكتب قبل إرساله إلى المطبعة، فربما مضى الأسبوع ولم ألقه إلا إذا طرأ من شؤون الصحيفة ما يدعو إلى مشورته أو تبليغه عنه ليتصرف فيه بما يراه.

قرأت إعلانه عن طلب محرر للصحيفة، فكتبت إليه أخبره بأننى أرشح نفسى للعمل فى الصحافة لأول مرة.. فجاءنى الرد منه بعد يوم أو يومين يسألنى أن ألقاه بدار مطبعة الواعظ لصاحبها الكاتب المعروف - يومئذ - محمود سلامة، وكنت أقرأ مقالاته النقدية ويعجبنى منه ما يعجبنى من مدرسته كلها: وهى مدرسة عبد الله نديم وأحمد سمير، وكنت أعرف مكان مطبعة الواعظ لأننى فكرت زمناً فى إصدار صحيفة على مثالها وفى مثل حجمها، قبل أن أستقيل من وظيفتى الحكومية.

فلما ذهبت إلى الموعد - بالدقيقة - أخرج الساعة من جيبه ونظر فيها، وسكت هنيهة ثم سألنى عما اطلعت عليه من مؤلفاته التى أشرت إليها فى

الخطاب، ثم اختار صحيفة من الصحف التى كانت على مكتب صاحب الواعظ وقال لى: هل قرأت هذا؟ فنظرت فى الصحيفة فعلمت أنه يشير إلى مقال عن رحلة لكاتب المقال فى العاصمة الفرنسية، كنت قد اطلعت عليه قبل ذلك. فرددت الصحيفة إليه وأنا أقول: إننى لم أذهب إلى باريس، ولكن موضع العجب عندى أن الكاتب لم يطرق منها غير الحى اللاتينى ولم يعرف فى الحى اللاتينى غير معارض الخلاعة والمجون، فهل هذه هى باريس؟ فضحك صاحبنا ضحكة تنم على كل ما فى طوية نفسه من براءة طيبة كبراءة الطفولة، وقال: هذه هى باريس كلها إذا كانت القاهرة كلها هى ما تراه الساعة.. هل لك فى رحلة قصيرة نقضى بها رياضة اليوم؟..

وسرت معه حيث سار، فلاح لى أنه كان كأنما يسير معى ولا يوجهنى إلى مكان مقصود بعينه، أو كأننى كنت أوجهه كما كان يوجهنى على السواء..

وقال لى فى صراحة لا تكلف فيها، أنه عرض علىَّ مقال الصحيفة عن رحلة باريس امتحاناً لرأيى بعد أن أغناه أسلوب خطابى عن امتحانى فى الكتابة، وبعد أن أغناه حضورى إلى الموعد - بالدقيقة - عن امتحان نظامى فى العمل.. فلى أن أعتبر نفسى محرراً بصحيفة الدستور منذ تلك اللحظة، ولى أن أسأله عما أشاء عن نظام العمل المطلوب.

ولم أسأله عن شيء من ذلك، ولكنه هو قد مضى يسهب فى بيان مقصده من إنشاء الصحيفة وبيان خطتها فى السياسة والوطنية.. ثم مضت الأيام بعد الأيام فى هذا العمل المشترك بينى وبينه لا يعاوننا فيه أحد غير أخيه - أحمد - الطالب بكلية الحقوق، وغير آحاد من زملائه الطلبة ومن وكلاء الصحيفة فى الأقاليم، ولم ينقطع عملى فى الدستور غير بضعة أسابيع تركت الصحيفة فيها لخلاف وقع بينى وبين أخيه، لاعتراضه على بعض آرائى فى السياسة الحزبية، والحق أنه اعتراض لم يكن فيه ما يسوء لولا أننى استكثرته من الأخ الأصغر وهو يعلم أن أخاه الأكبر لا يبدى على ما أكتب مثل هذا الاعتراض فيما يخالفه أو يناقضه من الآراء السياسية.

ولم ألق محمد فريد وجدى بعد تعطيل الدستور غير مرات معدودات، وكنت قد برحت القاهرة إلى أسوان ثم عدت إلى القاهرة للعلاج من وعكة قطعتنى عن العمل بضعة أشهر.

وفى حديث من أحاديث الرياضة على الأقدام كان لقائى الأول له بعد عودتى إلى القاهرة، فإننى عرفت مسكنه بعد انتقاله إليه من مسكنه بدار الصحيفة، فقصدت إليه على أثر رياضة فى الخلاء وبيدى كتاب من كتب الفلسفة الاجتماعية، فقال لى وقد نظر فى الكتاب ولمح على وجهى أعراض السقم: وفى مثل هذا الكتاب تقرأ وأنت ترتاض للاستشفاء؟..

وأذكر أننى فاتحته باعتقادى قصر العمر وقلة الجدوى من الاستشفاء، فابتسم ابتسامته الأبوية، وفتح الصفحة الأولى من الكتاب وهو يقول لى: اكتب هنا.. ثم أملى على كلاماً فحواه أننى سأعود إلى هذه الأسطر وأنا شيخ معمر، لكى أعرف أننى كنت على خطأ كبير حين قدرت لنفسى نهاية العمر القصير..

رحم الله ذلك القلب الطهور، وذلك الروح الكريم، وذلك الخلق الفريد..

إن يكن اليوم لا يُذْكر حقَّ ذكراه فما هو بالخمول ولا هو بالقصور عن حق الخلود، ولكنه يعيش فى عزلة من دنيا التاريخ، كما عاش أيامه فى عزلة من دنيا الحياة.

عباس محمود العقاد

من تاريخ محمد فريد وجدي[1]

بقلم الدكتور/ محمد رجب البيومي

قضى الأستاذ وجدى حياته الخصيبة مجاهداً بقلمه، لم يترك حومة الكفاح يوماً واحداً، إذ كان يقف موقف الذائد عن القيم الإسلامية فى عصر هبّت فيه زعازع الشكوك من كل ناحية، فلا يرى إلاّ متهجّماً ينتقص عن جهل أو ضغن، ولابدّ من حزم عاجل فى إدحاض الباطل، لذلك كان امتشاق القلم رسالة وجدى التى وقف عليها حياته دون سأم أو كلال.

ونحن نعهد لدى كثير من أبطال المعارك حمية مشتّطة تدفعها إلى الجدال بغير التى هى أحسن، وكثيراً ما وجد الأستاذ وجدى من هؤلاء - وفيهم من لا يصل إلى مرتبة تلاميذه - من يركب رأسه معانداً، ثم يظن السِّباب طريق الفلج، فينضح بما تفيض به نفسه من نقيصة، وكان الرجل يسمع ويرى ما يسوء ويؤلم متغاضياً، متخطّيا كل بذاء ليبحث عن شُبهة يدحضها، أو اعوجاج يقومه، بل إنك لتعجب أشدّ العجب حين تجده يقابل بالبشاشة والمحبّة خصمه، وكأنهما صديقان فى مجلس سمر، لا أن أحدهما ظالم مُسرف ينضح بالسباب.

لقد فكّرت كثيراً فى مثالية هذا الصابر المحتسب، إذا كانت فى رأيى شذوذاً عبقرياً فيما نعهد من المعارك، ونرى من الجدال، حتى رجعت بها إلى طبيعة هذه النفس الراضية التى جُبِلَت على السماحة الإنسانية حتى التصقت بها

(١) من كتاب (النهضة الإسلامية فى سير أعلامها المعاصرين) جـ١ ص٩٨.

التصاقا لا انفصام به، ووراء ذلك دراسة وجدى العميقة لعلمى النفس والاجتماع، إذ رأى من أحوال الهبوط ومهاوى السقوط للنفس الإنسانية ما أخذ يبّرر معه كل شطط وجموح، ودارس النفس البشرية إذا كان نقي الفطرة سمح السّريرة فإنه يقف موقف الراثى لذوى النزق المتسلّط لا موقف الشامت المتربِّص، وهكذا كان محمد فريد وجدى فى معارضته خصومه، يتلّقى الصخر ليقذف بالزَّهر وعند الله جزاؤه الأوفى.

على أن طبيعة موقفه النضالى عن دين يشمل تعاليم الحياة، ويسيطر عليها فى كل اتجاه قد فرضت عليه أن يعمق اطّلاعه، ويوسّع دائرة ثقافته بحيث تشمل علوم العصر ومعارفه الكونية والإنسانية فوق تعمقها الرصين فى أبواب الثقافة الإسلامية ومناحى التشريع الحكيم، لأن الرجل يحارب فى كل ميدان، ويقف أمام كل اتجاه يشذّ فلا بدّ من ذخيرة سريعة الحَسْم قوية السلاح.

لقد وقف - فى معركة الترجمة لمعانى القرآن - أمام نفر من المتعمّقين فى النصوص الفقهية من قارئى الحواشى ودارسى الأصول، وفى أيديهم أسلحتهم المهيئة من النصوص والقواعد والتفريعات، وكان الظن بهم أن يكونوا فى هذا المضمار أطول منه يداً، وأعمق نظراً، لأن الموضوع موضوعهم والميدان ميدانهم، ولكن الرجل المناضل قد أخذ للأمر عدّته، فقرأ وأمعن، وواجه النصوص بالنصوص، وعارض الأقوال بالأقوال، ثم فلج بالحجّة الدامغة، وجهر بالرأى الساطع وسجّل ذلك فى كتاب علمى يحمل طابع الاستدلال المتعمّق والنظر البصير!. والمسألة بعدُ ليست فى حاجة إلى تعداد أوجه الرأى إذا خلصت الضمائر وصدقت النيات، لأن ترجمة المعانى غير ترجمة النصّ، ولم يقل أحد بجواز ترجمة النص حتى يشتعل الخلاف.

كما وقف - فى معركة الشعر الجاهلى - أمام التراث الأدبى بأكمله يراجع قصائده، ويدرس أعلامه، ويحلّل نصوصه، ثم يجابه المتخصّصين فى هذا الحقل مجابهة النظير وكأن الرجل قد خلص لدراسة الأدب وحده، فهو يميّز

الصريح من المنحول، ويحلّل دوافع الانتحال، ويوضح خصائص الأدب الأصيل، ويرسم الصورة الدقيقة للطبيعة الجاهلية بخاصة والعربية بعامة، فى عفّة لفظ واستقامة دليل، مع التسليم بما يراه صادقاً من كلام الخصم إذا وضح اتجاهه، وصحّ مرماه.

وفى معركة تحرير المرأة كان كفئاً كريماً لقاسم أمين، فجاء كتابه عن المرأة المسلمة صادق الدلالة على عمق ثقافته الاجتماعية وبصره باختلاف المنازع بين الشرق والغرب، وإلمامه بما تخوّف منه أساطين المشرعين فى أوروبا من انحطاط مستوى المرأة الإنسانى، حين تمتهن فى حمل الأثقال، وإدارة أدوات الوقود فى المصانع والمناجم، وقد صحّ ما تنبأ به الأستاذ، وأيّدته الشواهد المعاصرة، وكأنه كان ينظر إلى الغيب من ستر دقيق، والعجيب: أن بعض الذين ضاقوا بكتاب «المرأة المسلمة» قد شوّهوا وجهه السافر، فافتروا على الرجل بأنه ينادى بحرمان المرأة واستعبادها، ويحارب تعليمها وثقافتها، مع أن الكتاب قد طبع مرّتين، وليس به غير ما يشرف المرأة، ويصون كرامتها، وينمى ملكاتها العقلية والاجتماعية فى ظلال التعاليم الإسلامية!.

ولو لم يكن وجدى مثالى النظرة لضاق بهؤلاء الذين يحرّفون الكَلِم عن مواضعه، ويتفننون فى السِّباب والشتائم ولكنه يردّ عليهم من جديد لِيُريهم فقط أنهم لم يقرؤوا الكتاب ولا يصفهم بما يستحقّون إذا افتروا الكذب، وخلقوا الأراجيف.

فإذا تحدّثنا عن معارك وجدى مع الطبيعيين، وأنصار نظرية النشوء فى الشرق والغرب، فإننا لا نكاد نجد مثيلاً للرجل في إحاطته بموضوعه، إذ كانت هذه النظرية فتنة العصر فى الشرق، بعد أن ظلت فتنة عصرها فى الغرب زمناً طويلاً حتى انجلت الكشوف العلمية والبراهين العقلية عمّا يعصف بها كرماد فى مهب الريح.

ومن الحظّ الحَسَن: أن وجدى قد جمع أكثر ما كُتب بصدد ذلك فى مؤلفيه: «الإسلام فى عصر العلم» و«على أطلال المذهب المادّى» ، وكانت مجلة «الحياة» التى أصدرها الأستاذ فى شبابه ميداناً لهذه البحوث، ثم واصل الجهد بعد احتجاب مجلته، فأخذ يُولى الصّحف اليومية والمجلاّت الأسبوعية بسيل دافق من نقده، وكم صمد لأُناس بهرتهم الزخارف، فأخذوا يترجمون ما لا يعقِلون، دون أن يسأم تكرار القول أو تضايقه حماقة الادّعاء.

أما دفاعه عن العقيدة الإسلامية فى أصولها المقرّرة: فقد ألجأه مضطراً إلى مناوأة من يناقشونه فى مسائل التثليث والصّلب والفداء، والرجل فى أعماقه يودّ أن يفرغ لتوضيح النظرات الإسلامية وحدها دون شغب طائفى يعدّد جبهات القول دون مبّرر، ولكنه يرى الهجوم يتوالى على العقيدة الإسلامية، ممّن يزنونها بالعقائد المخالفة، دون أن يعدلوا فى القول، ويزيدون فيفترون على الله كذباً بما يلصقونه بالقرآن من أقوال يتكلّف لها التأويل، والسكوت على ذلك كله مما لا يطيقه مجاهد أمين، كالأستاذ فريد وجدى، فأدلى بدلوه فى الدلاء متعرضاً لسفاهة السافهين، وكان قُصاراه مع لجاجتهم الشائنة أن يقول كما قال الله : ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لِمَ تَلۡبِسُونَ ٱلۡحَقَّ بِٱلۡبَٰطِلِ وَتَكۡتُمُونَ ٱلۡحَقَّ وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾[1]!.

إن دراسة المعارك الوجدية فى شتى اتجاهاتها الفكرية تتطلّب من يتخصّص لتحليلها من الدارسين، لأن هذه الوقفات الرائعة فى تاريخ الفكر المعاصر، جديرة بالاحتذاء من ناحيتين لا من ناحية، إذ أن سموها الخلقى وبراءتها المثالية من شوائب التعريض والغمز، مما تجعل لها قيمة خاصة فوق قيمتها العلمية. وقد كان الأستاذ وجدى من عشّاق النزاهة الفكرية، إلى درجة لا مثيل لها فيما نشهد ونسمع، حتى أن هذه النزاهة الرائعة كانت إحدى عوامل خسارته المادية فى دنيا الصحافة!. وهى خسارة لا تقع على الرجل وحده، بل

(١) آل عمران : ٧١.

تقع على كل من يشرئب لحماية المُثُل الراقية من المتطلّعين، ومن حديثها ما نعلمه عن إفلاس جريدة «الدستور اليومية» التى أنشأها الرجل لتنطق بمبادىء الحزب الوطنى، إذ كان أحد أعضائه البارزين، كما كان موضع التقدير من زعيمه الكبير مصطفى كامل رحمه الله، وبين الرجلين من المراسلات ما ينطق برعاية كلٍّ منها لصاحبه واجتبائه إياه.

وقد حدث أن عارض وجدى بعض ما ارتآه أعضاء الحزب من اتجاهات فى السياسة معارضة نزيهة، وكان يظن أن انتماءه السياسى لهذا الحزب الكبير لايحول دون نقده حين يتّسع مجال النقد، فجهر بما يعتقد فى أدب وذوق، ولكن شباب الحزب وأكثرهم من ذوى العجلة المتسرّعة قد ناوؤا الرجل، وحرّصوا على إهمال جريدته حتى كسد سوقها واضطر الأستاذ للدفاع عن رأيه حين قال : «إنى لا أنتبذ الدستور مكاناً بعيداً عن الاحزاب إلاّ ليكون واسطة اتحاد واتفاق بينها، وواقفًا موقف المراقب لأعمالها، حتى لا تحرم الأمة من جريدة غير متحزّبة فتضيع الحقائق وتطمس المعالم، ولا يكون للطرفين وسط أما أنا فواحد من أعضاء الحزب الوطنى، أعترف بأن مبادئ هذا الحزب هى المبادئ الصحيحة، التى يجب على كل مصرى أن يأتم بها، ويتخذها له دستوراً، لكن هل يغيب عن حضرة الأخ أن كونى من الحزب الوطنى معترفًا بزعامة مصطفى باشا كامل لا يمنع أن أنتقد خطبته، وأن أبين للشبيبة موقع الخطأ والصواب على ما يقتضيه واجب الصحافة! هل تمنع الإنجليزى إنجليزيته عن الانتقاد على خطبة ملكه أو زعيم حزبه؟. إذاً ما فائدة الجرائد؟ وما معنى التناصح والتعاون فى الخدمة والمساعدة فى تقويم الآراء؟.. وما فائدة إصدار جريدة الدستور؟ وفى مصر جرائد لا تحصى، وأنا فى غنى عن الكسب من جهته إذا كنت لا أملك حرية الانتقاد فيما أعتقده واجباً ضرورياً».

هذه الحرية المثالية لدى الكاتب الكبير كانت تزداد أجمل ازدياد بالموعظة الحسنة، والمجادلة بالتى هى أحسن، وأذكر أن الزعيم مصطفى كامل رحمه الله كان لا يرى رأى وجدى فى هذا الرفق الليّن، إذا اتجه به إلى خصوم الإسلام

ومناوئيه فقد رد فريد رحمه الله على اللورد كرومر رداً مهذّباً حين هاجم الدين الإسلامى فى تقريره الأخير، وشفع نقضه الصريح بالحجج العلمية الحاسمة فى أربعة فصول هامّة، فسحت لها جريدة «اللواء» موضع الصدر البارز بين المقالات، ودفعت الزعيم الشاب إلى رؤية وجدى ومحادثته، ولا نرى أفضل من أن ننقل عن الأستاذ وجدى ما دار بينه وبين الزعيم الكبير بصدد هذا الموضوع حين قال[1]:

«جلس هو على مكتبه وجلست بجانبه، وانتبذ القوم الذين معنا مكاناً من الحُجرة، وأخذوا فى شأنهم، فطفق صاحبى يكلّمنى فى أمر الردّ، ويُظهر لى أنه مسرور جداً من مبادرتى بنصرة الدين وكَبْت خصومه الملحدين، وأطنب فى ذلك ما شاء، ثم قال لى: هذا كله حسن، ولكنى أرى فى مقدمتك ليناً فى اللهجة، لا يصحّ أن تكون عليه مقدّمة ردّ مطاعن على الإسلام وجّهها إليه رجل من غير أبنائه لا هم له إلا جرح عواطف المسلمين وتسوئ سمعتهم.

فقال له أليس إلانة القول مع قوة الحجة خير من الشدّة التى ربما نفّرته من قراءة البحث كله فيفوتنى الغرض من كتابته، وهذا فرعون موسى الذى افتأت على اللّه، وادّعى الألوهية قد أمر اللّه موسى عندما أرسله إليه أن يقول له قولا ليّنا لعلّه يتذكّر أو يخشى، وأمرنا اللّه بذلك نصّاً فقال: ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾[2]. وما الذى يضيرنى لو ألنْت له المقدمة استدراجا حتى إذا تورّط معى فى البحث وأنست روحه منّى قصد الحقيقة اطمأن إلى الموضوع وأشربه قلبه.

فقال: كلا إنك لم تلن له القول فقط، بل عذرته فيما قال أيضاً، وقلت: إن فى المسلمين من يقول مثل مقالة كرومر افتتاناً بالعلم الأوروبى، وكفى

(١) نشر هذا القول بجريدة الدستور، عدد ١٦، فبراير سنة ١٩٠٨، وقد نقلته عن الكتاب القيم الذى أصدره الدكتور البحاثة طه الحاجرى عن فريد وجدى، ص ١٤٧، ١٤٨، وهو أول تاريخ دقيق لفترة من حياة الرجل العظيم.

(٢) النحل: ١٢٥.

بجملتك هذه مبرئاً فى نظر أهل دولته. ولا بيعد عليه أن يقول فى تقرير السنة المقبلة فى تبرئة نفسه: إنه معذور فيما ذهب إليه، بدليل ما كتبه فلان فى جريدة «اللواء» ويسرد عبارتك بالنص، فتكون قد أعطيته أكبر سلاح يدافع عن نفسه.

فقلت له: كل هذا ممكن، ولكنى لا أنظر إلى هذه الاحتمالات ما دام موضوعى الذى أبحث فيه دينى، ورب الدّين يقول: ألينوا القول للمخالفين ولا تخاشنوهم عند دعوتهم إلى الإيمان.

قال: يا أخى نحن فى موضع يجب أن نبث فى الأمة روح الحميّة، والعبرة بالكتابة المؤثرة، وهذه فرصة من أجمل الفرص لذلك، لا أن نقابلها وهى فى هذا الغليان الوجدانى بما يكسر نفوسها ويطمئن من إشراقها»

أسهبت فى نقل هذا الحوار، ليعلم القارىء مُثُل الأستاذ وجدى وقيمه التى تسيطر على جهاده القلمى، وهى مُثُل كان من المحتمل أن تتعرّض لما يزعزعها بعض الشىء فى نفسه، ولكن إيمانه الراسخ بجدواها اليقينية وثمرتها المبتغاة قد مكّن لها من نفسه رغم ما ينوشها من الهزّات.

وفى ضوء هذه المُثُل كان الكاتب الكبير يقابل السيئة بالحسنة فى بشاشة وإقبال، لقد بذل عُصارة فكره، وبدّد هدوء نفسه، وجمع أشتات قوّته، سنوات طوالاً ليُخرج «دائرة المعارف» فى عشرة أجزاء ضخام، كان يتوقع بعدها أن يجد التقدير المُنصِف والتشجيع الهادف، ولكنه وجد الدكتور: محمد حسين هيكل يكتب فى «جريدة السياسة» (٨/٤/١٩٢٥) فصلاً طويلاً ينتقص عمل الرجل، ويقلل من شأنه، ويقول في نهايته: «إن الاضطراب بين الإهمال والإسهاب والإيجاز يرجع إلى أسباب ليس انفراد السيد فريد وجدى بالبحث أهمها، إنما أهمها أن ليس للمؤلف نهج ولا خطة، ولو كانت ثمة خطّة، واتّبعت لما كانت هذه العيوب واضحة، ونحسب أن هذا يرجع إلى نوع تربية السيد فريد وجدى العلمية، فهو كثير الاطّلاع والمراجعة لكنه فى اطّلاعه ومراجعته لا يصدر عن أساس ذاتى خاصّ»

أجل، وجد الأستاذ فريد وجدى ذلك، وأكثر من ذلك من الدكتور: محمد حسين هيكل، فهل منعه هذا التحامل الظالم أن يسكت عن كلمة الحق فيه، حين أصدر كتابه الشهير: (حياة محمد).

لو كان المنقود شخصاً غير فريد لأغضى وتهاون متذكّراً ما أسلف هيكل له من جحود، ولكن الأستاذ المثالى محمد فريد وجدى يكتب مقالاً فى تقريظ الكتاب الرائع ـ من وجهه نظر ذاك العصر، وفى الكلام نظر ـ يقول فيه[1]:

«فإذا تصفّح القارئ الكتاب رأى نفسه حيال بحوث مستفيضة تتجلى فيها ألمعيّة الدكتور هيكل تجلياً باهرا، تضطره بسحر بيانها أن يقتفى أثرها فى أدوار هذا التازيخ الحافل بالعظائم، فتمر به صفحات أملاها الإيمان الراسخ، والفهم الثاقب والغوص البعيد الغور، مما لانبالغ إذا قلنا: إن هذه الصفحات من حسنات هذا العصر فى البيان والعمق، ولا نشطّ إذا حكمنا بأنها من الطرائف التى كتب لها الخلود».

إن اصطناع الصخب المفرقع والرنين المدوّى فى النقد العلمى قد يشفى لجاجة بعض من يحسبون أنفسهم حُماة السّرح وفرسان الميدان، ولكن هذا الصخب فى واقع أمره يضائل من أدلتهم المقنعة، ويرسل غيومًا تطمس معالم الحق لدى المنقودين، وإن تجربة الأستاذ فى التزام السكينة، واحترام المعازض مهما اتّسعت الشقّة بينه وبين مخالفه لتجربة جديرة بالالتزام، إذ عادت بأطيب الثمار على الحقيقة قبل أن تعود بالرضا المُقنِع على الناقد والمنقود.

أذكر أن إسماعيل أحمد أدهم ـ وله فى الإلحاد وجهه الصريح ـ قد كتب مؤلّفاً تحت عنوان: «لماذا أنا مُلحد» حشاه بما يهرف به الطبيعيون من لغط حول المادة، وبُطلان السبب الأول، والصدفة والاحتمال الفرضى مما هو معروف لدى أمثاله، إذ أطالوا الخوض فيه إطالة لا تميل إلى اعتدال، وقد ظنّ الدكتور أدهم أنه بكتابه قد ألزم مُخالفيه الحجّة وجاء بأنصع الدليل، ولكن الأستاذ فريد

(١) مجلة الأزهر، المجلد السادس، ص ١٣٦.

وجدى ـ والميدان ميدانه ـ قد نسف الكتاب نسفاً بمنطقه الدقيق فى بحث علمى مُركز نشره بالمجلد الثامن من مجلة الأزهر، حيث أشبع القول إشباعاً تكشف به عوار هؤلاء المندفعين!.

وقد قرأت الكتاب والردّ عليه منذ زمن بعيد، ثم أُتيح لى أن أصادق الكاتب المجيد الأستاذ صديّق شيبوب ـ رحمه الله ـ وكان صديقاً لأدهم، فذكر لى أن الدكتور أدهم جاءه ذات يوم ومعه مجلة الأزهر وهو يقول: لقد أدهشنى الأستاذ وجدى بمسلكه النقدى وأدبه الحوارى، حتى أوقعنى فى حيرة بينى وبين نفسى!، لقد التمس لى العذر حين بحث عن أسباب هذا الإلحاد فى تربيتى العائلية، بين أم مسيحية وأُختين تُكذبان الإنجيل ثم كرّ على أدلّتى بأسلحة علمية لا تعرف المهاترة!، فأنا حائرة ماذا أقول فيه؟

وإذا صدقتنى الذاكرة فإن الأستاذ الشاعر: حسن كامل الصيرفى قد نقل لى فحوى ما تقدّم عن صديقه أدهم أيضاً.

ألا يرى معى القارئ بعد ذلك أن موضوعية وجدى وبُعده عن الإسفاف النقدى أقوم السُّبُل وأجدرها بالاحتذاء لدى المنصفين؟.

إن لصاحب دائرة المعارف فضله الكبير على الثقافة المعاصرة، ومقامه الجهير فى الذّود عن الإسلام، وما أظن أن مقالنا عنه يَفِى بصُبَابَةٍ من حقّه وإنه لَحقٌّ جليل.

د. محمد رجب البيومى

obeikandl.com